مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية | المجلد.6/ العــدد1 (2022)، ص ص 408-425

الإسهامات العسكرية لعلماء وطلبة حاضرة معسكر في فتح مدينة وهران عام 1791م على ضوء المصادر المحلية

The military contributions of scholars and students of the camp metropolis in the conquest of the city of Oran in the year 1791 in the light of local sources

قدور بوجلال*
جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر(الجزائر)
boudjellal.kadour@univ-mascara.dz

تاريخ الاستلام: ...../...../..... **تاريخ القبول:** ...../...../.....

ملخص:

شهدت مدينة وهران خلال القرن الثامن عشر الميلادي كثيرا من الحروب والمعارك مع الإسبان، وقام علماء وطلبة معسكر خلال ذلك بدور جهادي آخر وفقا للظروف الحربية السائدة يتمثّل في إسداء النصائح والإرشادات ذات الطابع العسكري للقادة والجنود وتوجيههم إلى ما فيه سلامة الجيش والنيل من العدو.

وسنحاول فيما يوالينا من صفحات الإحاطة بجهود هؤلاء العلماء والطلبة في فتح وهران الثاني وتبيانها، خاصة وأنّ الباي محمد الكبير كان قد اعتمد على هذه الفئة لغرض حصار طويل الأمد ضد الإسبان.

كلمات مفتاحية: معسكر، علماء، طلبة، وهران، محمد الكبير.

Abstract:

During the eighteenth century AD, the city of Oran witnessed many wars and battles with the Spaniards, and during that scholars and camp students played another jihadist role according to the prevailing war conditions, which is to give advice and instructions of a military nature to commanders and soldiers and direct them to what is safe for the army and to undermine the enemy.

In the following pages, we will try to capture and clarify the efforts of these scholars and students in the conquest of Oran II, especially since the great Bey Mohamed had relied on this group for the purpose of a long-term siege against the Spaniards.

Keywords:

Mascara; scholars; students; Oran; Mohamed el kebir.

. مقدمة:

* المؤلف المرسل قدور بوجلال

لقد تعرضت الكثير من المناطق الساحلية الجزائرية إلى سلسلة من الهجمات الإسبانية منذ بداية القرن السادس عشر، واستمر العداء بين البلدين إلى غاية سنة 1792م، تاريخ تصفية الوجود الإسباني من الأراضي الجزائرية، ومن الفئات التي تولّت الدفاع عن حمى البلاد ومواجهة خطر الغزاة العلماء من رجال الدين ومؤسسة الرباطات التي كانوا يشرفون عليها، ولما رأى الحكام العثمانيين جديّة هذا التنظيم في مقاومة المعتدين تعاونوا مع بعض الرباطات ومع المشرفين عليها ونظّموها، فقد قام الباي محمد الكبير بالإشراف على رباط وهران ودعمه بكلّ المستلزمات بغية تخليصها من نير الاحتلال الإسباني.

وسنحاول فيما يوالينا من صفحات الإحاطة بجهود هؤلاء العلماء في هذا المجال، وتبيانها مقسمين ذلك على مجموعة من العناصر هي:

- مشاركة علماء وطلبة معسكر في رباط وهران.
- حث علماء معسكر الناس على الجهاد لفتح وهران.
- تنظيم علماء معسكر لرباط وهران.

2. مشاركة علماء وطلبة معسكر في رباط وهران:

لقد أدى علماء وطلبة معسكر دورا رائدا في النهضة الفكرية والثقافية وفي حركة الجهاد[1] والمقاومة ضد الإسبان المحتلين لوهران والمرسى الكبير، ومما يلفت النظر أن موضوع الجهاد ضد النصارى الإسبان كان يّمثّل القضية رقم واحد لأغلب علماء ومثقّفي حاضرة معسكر والاهتمام الأول لهم، إذ شاركوا بأنفسهم في حركة الجهاد أفرادا وجماعات وخاضوا المعارك، وألّفوا الكتب ونظّموا الأشعار لإلهاب حماس الناس والتحضير للمقاومة، بل وكوّنوا رباطا لهم قرب وهران سُمي "برباط الطلبة"[2] أقام فيه علماء هاته الحاضرة لشن الحرب على الاحتلال الإسباني.

1.2. حث علماء معسكر الناس على الجهاد لفتح وهران:

([1]): يسميه أبو القاسم سعد الله بالإحساس المشترك الذي اشترك فيه العثمانيين وأهل الأندلس وشمال إفريقيا، إذ قسم الجهاد إلى قسمين: جهاد بحري عام و جهاد بري خاص فالأول هو حرب بكل معنى الكلمة ومقره البحر ضد الدول المعادية لإيالة الجزائر، أما النوع الثاني من الجهاد فهو الموجه ضد إسبانيا. أبو القاسم سعد الله، (1981)، تاريخ الجزائر الثقافي: من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م)، ج1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ص، ص: 194،195.

([2]): يحي بوعزيز، (1988)، دور العلماء و الرباطات في تحرير مدينة وهران من أيدي الإسبان، مجلة دراسات مغاربية، العدد: 01، ص: 107.

لقد عمل علماء وطلبة حاضرة معسكر على تحريك الهمم ودفعها لافتكاك مدينة وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الإسباني[3]، إذا لم تخل المصادر التاريخية المعاصرة للباي محمد بن عثمان الكبير من إبراز فضائل الجهاد، اعتمادا على نصوص دينية من القرآن والسنة النبوية، وكذا أبيات شعرية مثلما فعل الأديب والمؤرخ ابن سحنون الراشدي في كتابه "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" يحُث فيها الناس على الجهاد قائلا:

أَيَا أُمَّةً غَابَتْ عَلَيْهَا حُلُومَهـَا ... وَأَصْبَحَ دَاعِي المشْرِكِينَ يَسُومُهَـا
تَ واكَلَ أَمْرُ الدِينِ أَصْحَابَ أَمْرِهَا ... وَمَا نَفَعَتْ أَهْلَ العُلومِ عُلومُهـَا
كَسَاهَا طُلّابُ المالِ ثَوْبَ مَذلَّةٍ ... فَصَالَتْ عَليهَا واسْتجَاشَتْ خُصُومُهَا
أَلاَ يَقضَةً مِنْ رَقْدَةٍ طَالَ وَقْتُهَا ... فَلَا أَحَدَ فِي العَالمينَ يَنُومُهَـا[4]

إلى أن يقول:

فَكيفَ بأرضِ الشِركِ وهي مَنازلُ ... بدَا حُسْنُها عن سَاكنِيها وشُومهَا
فَلا تَرهبُوا من مَانِعَات حُصونِها ... ففِي عزمِه مَا لا تُقاوم رومُها[5]

ولا شك أنّ مثل هذا الشعر كان له دوره الفعال في تحريك العزائم وتحقيق الهدف المنشود المتمثل في استرجاع مدينة وهران وإجلاء الإسبان عنها سنة 1792م، حيث أرجع ابن سحنون الراشدي سبب تأخّر الفتح إلى قصور حدث في الهمم، مشيرا إلى أنّ هذا المرض هو فشل شمل سائر الأمم.[6] وفي موضع آخر من كتابه الثغر الجماني نلاحظه ينتقل من فكرة القصور إلى فكرة انقطاع الجهاد، مؤكّدا على أنّه لم يبق سوى ذكره بعدما أصابه كساد مستمر إلى غاية أن تقلد الباي محمد الكبير حكم البايلك الغربي[7].

([3]): يحي بوعزيز،(2004)، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع. ص: 132. وللمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: يحي بوعزيز،(1995)، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، بيروت، دار الغرب الإسلامي. ص: 230.

([4]): ابن سحنون الراشدي،(1973)، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، الجزائر، مطبعة البعث. ص: 162.

([5]): "المصدر نفسه"، ص: 163.

([6]): صالح فركوس، (1982)، الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري، الثقافة، العدد: 71، ص، ص: 21،20.

([7]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص: 90.

وزيادة على هذا فلقد كتب المصطفى ابن عبد الله ابن زرفة الدحاوي في رحلته القمرية أنّ سبب تأخّر الفتح[8] ما هو إلاّ تقاعس عن الجهاد، الذي فسره بأنّه خلود أهل السّيف إلى حياة الأمان وضعف الفعّالية القتالية لدى الجنود والفرسان. مُضيفا إلى أنّ العامّة والقبائل المخزنية لم تُبال بوهران و المرسى الكبير، متهرّبة من مسؤولياتها تاركة للجهاد رغبة في الدنيا فمنهم من جزع من القتل والهلع والإنفاق، ومنهم من كان يجهل ما في الجهاد من الثواب الجزيل[9].

ويظهر ذلك جليّا في تخصيص ابن زرفة الدحاوي فصلا كاملا في كتابه الرحلة القمرية عن الترغيب في الجهاد والترهيب لمن تغافل عنه من العباد، مع ذكره لنبذة مختصرة عن فضائله ونشر بعض رُتب الشهيد وفضائله[10]، فها هو في ذكره للرباط وأجر المرابط به يقول: "وفضل بها الرباط كسائر الثغور وسواحل البلدان وفضل العمل بالرباط، وتضاعف الحسنات له المؤثرة للانبساط، وحسن الثور به والاعتباط...".[11]

أمّا عن ذكر ابن زرفة الدحاوي للترغيب في رباط وهران فيقول في هذا الصدد: "....وهذا أكبر نص في الترغيب في الرباط بالسكنى في وهران ونحوها من الثغور، إذا الدوام والثبوت به... من أنّ الرباط من وراء عورة المسلمين ثابت في سكنى وهران"،[12] وفي ذكره للترهيب لمن تغافل عن الجهاد فها هو يقول: "هذا وخرج الحافظ المتدري في الترهيب، من أن يموت الإنسان ولم يغزو ولم ينو الغزو وما نصه... هذا وتأسّت به رحمة الله تعالى في تأخير الترهيب من ترك الغزو عن الترغيب فيه، وإن كان النظر يقتضي تأخير التّحلية عن التّخلية"[13].

وما يلاحظ هو أنّه قد رافق موضوع الحث على الجهاد والرباط ترويج علماء معسكر للمرائي القرآنية بل وحتّى الخيالية التي تبشّر بفتح وهران[14]، بحيث ذكر ابن سحنون الراشدي عشر مرائي اختلفت صيغتها وتعدّد

([8]): في مقابلة أجراها الباحث مع الدكتور مولاي بالحميسي، أكد له هذا الأخير أنه من أسباب تأخر فتح وهران هو نكبة سنة 1732م أي سنة استرجاع الإسبان لوهران و المرسى الكبير للمرة الثانية بعد طردهم منهما في الفتح الأول سنة 1708م. هذه النكبة التي زرعت بذور اليأس عند بايات البايلك الغربي، باستثناء الباي الحاج عثمان و الباي إبراهيم و الباي حاج خليل الذين حاولوا تحرير وهران و المرسى الكبير لكن دون جدوى. لقاء مع الدكتور مولاي بالحميسي في رواية شفوية حدثنا بها يوم: 04 فيفري 2007.

([9]): ابن زرفة الدحاوي، (2003)، الرحلة القمرية في ذكر السيرة المحمدية: تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي، تحقيق: مختار حساني، الجزائر، مخبر المخطوطات. ص: 237.

([10]): "المصدر نفسه"، ص: 237.

([11]): "المصدر نفسه"، ص: 237.

([12]): "المصدر نفسه"، ص: 238.

([13]): "المصدر نفسه"، ص، ص: 175، 176.

([14]): ذلك أنه من العلماء من كان يتنبأ بالفتح قبل وقوعه تشجيعا للبايات و الباشوات، فكانوا يقرنون التهنئة بالتولية للدعوة إلى الجهاد، ويعتبرون الباي أو الباشا الحقيقي هو الذي يطلق السفن في البحر ويخرج الجيش إلى البر. أبو القاسم سعد الله، "المرجع السابق"، ص: 200.

أصحابها[15]. فقد أورد أنّ طالبا رأى شيخه أحمد بن ثابت[16] وبشّره بفتح وهران، وأنّ الناس سيغنمون منها كثيرا صدقة على السيد عبد القادر الجيلاني،[17] وفي هذا الصدد يقول **ابن سحنون الراشدي**: "وما زال الأولياء يحضرون ملاحم الجهاد أحياء وأمواتا... يقاتلون بالآلة كغيرهم، فيقتلون ويقتلون.... وأما الأموات فإنّ أرواحهم تحضر إعانة للمسلمين وإغاثة..."[18].

كما ذكر ابن زرفة الدحاوي في رحلته القمرية اثنتا عشرة رؤية حسنة، منها أنّ أحد الطلبة المجاهدين المرابطين قد رأى في منامه أنّ الشيخ إبراهيم التازي[19] قد بشّره بفتح وهران.[20] وعلى العموم فإنّ تلك المرائي قد تقاسمت جميعها نقطتين الأولى أنّها تبشّر بفتح وهران والثانية أنّها تحضّر العامّة والأعيان نفسيا، وتشجّع وتُلهم حماس الناس للجهاد وغزو وهران وتخليصها من الاحتلال الإسباني[21].

وممّا لاشكّ فيه أنّه قد تعرّضت مجالس الدروس وحلقات العلم التي كان يعقدها علماء معسكر في المدارس والزوايا والمساجد إلى الدعوة إلى الجهاد والرباط بوهران، فمثلا الجامع الكبير بمعسكر لم يقتصر دوره على أداء الصلاة فحسب، بل وكذلك القيام بوظيفة الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله من خلال إلقاء الدروس وتنظيم

([15]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص، ص: 206، 208.

([16]): الشيخ أحمد بن ثابت: أحد علماء الجزائر العثمانية خلال القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، ينحدر من العائلة الزيانية المالكة بتلمسان نبغ في شتى العلوم والفنون والآداب والتاريخ. كما قاد الحصار على الإسبان بوهران مرات عديدة بتجنيده لطلبة العلم وحملة القرآن، أعتبر من بين المناصرين لحكم الباي الحاج عثمان وأحد المعارضين لحكم عائلة مصطفى أبو الشلاغم المسراتي التي عجزت في الدفاع عن وهران وإنقاذها من الاحتلال الإسباني سنة 1732م، توفي الشيخ أحمد بن ثابت خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي (18م). بلبروات بن عتو، (2001)، الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري (1779م-1797م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم العلوم الانسانية، كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية، جامعة وهران، الجزائر، ص: 309.

([17]): عبد القادر الجيلاني: هو محمد عبد القادر الجيلاني بن أبي صالح موسى الحسين ولد في سنة 471هـ/ 1079م بجيل أوجلاني قريبا من بغداد أبدى منذ صغره استقامة في أخلاقه وتربية، فاشتهر في العالم الإسلامي بعلمه وزهده وتصوفه والتزامه بالمالكية وبطريقته القادرية المعتدلة لذا كان له أتباع كثيرون في المغرب الأوسط، واختلطت تعاليم طريقته بالطريقة القادرية الشاذلية وطرق أخرى توفي الجيلاني سنة 1079هـ/ 1166م وضريحه ببغداد الذي كان يقصده الحجاج الجزائريون المؤمنين بالطريقة القادرية. بلبروات بن عتو، "المرجع السابق"، ص، ص: 308، 309.

([18]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص: 293.

([19]): الشيخ إبراهيم التازي: هو إبراهيم بن علي بن مالك اللنتي التازي تلميذ الشيخ الهواري، وخليفته في عمله وطريقته. وهو من علماء القرن التاسع الهجري (15م)، كان متضلعا في علوم الفقه و الحديث وقول الشعر الصوفي وعلوم اللغة والبلاغة والأدب، كما تحمس لبناء المساجد و الزوايا وعمل على إدخال الماء للمدينة فأحبه الناس توفي سنة 866هـ/ 1467م فدفن في وهران ثم نقل إلى قلعة بني راشد بعد الاحتلال الإسباني لوهران. ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني....، "المصدر السابق"، ص: 469.

([20]): ابن زرفة الدحاوي، "المصدر السابق"، ص: 341.

([21]): المهدي البوعبدلي، (1973)، الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى، الأصالة، العدد: 13، ص: 29.

المناظرات الفكرية بين العلماء والطلبة في باب الجهاد وفضائله.[22] وبالتالي لا نستبعد أنّ طلبة حاضرة معسكر قد تهيّئوا فكريًا لتقبُّل أيّ دعوة إلى الجهاد ضد الإسبان، وهو ما حدث عند تلبية علماءها لدعوة الباي محمد الكبير، حيث اعتبر علماء وطلبة المدرسة المحمدية أوّل المستجيبين لنداء هذا الباي مرفوقين بعدّتهم سلاحا وغذاءا ودراهما[23].

كما يظهر أنّ الباي محمد الكبير قد تأكّد بعد استرجاع الإسبان لوهران والمرسى الكبير سنة 1737م إلى افتقار المجاهدين للقدرة القتالية وضعف خبرتهم الحربية، ومن أجل سدّ هذه الثغرة عمل على جمع طلبة العلم وحملة القرآن بعد معاناته من قلّة الرجال المخلصين النيّة في الجهاد. حيث كان الإنفاق والجهاد في سبيل الغنائم مُتفشيا بين صفوف القبائل، إذ رأى هذا الباي ضرورة حضور رجال يحاصرون وهران ويداومون على ذكر الله ولا يكون ذلك إلاّ بطلبة العلم وحملة القرآن.

وفي إطار ذلك جمع الباي محمد الكبير العلماء وعمل على اختيار ستّة طلاّب من المدرسة المحمدية بمعسكر،[24] حيث ألبسهم أفخر الملابس وأعطاهم ما يعتدّ به الرّسل من خيل أصيلة قوية ودراهم وفيرة. وأمرهم بالتجوّل بين قبائل تلمسان وما وراءها وتعبئة الطلبة وحثّهم على الالتحاق بالرباط من خلال توظيف أسلوب الترغيب لا الترهيب، حيث في أواخر شهر ربيع الثاني 1205هـ الموافق لشهر ديسمبر من سنة 1790م عاد الطلبة الستة إلى معسكر مصحوبين بأربعمائة طالب فوجّههم الباي إلى المحلّ المسمى رباط إيفري بضواحي وهران،[25] وفي هذا المقام يقول **ابن سحنون الراشدي**: "وقد كان الأمير جهّز نحو الستة من الطلبة ألبسهم لباسا جيدا، ودفع لهم عدة رفيعة ولأمة كاملة ودراهم، ووجهُهم يسيرون في البلاد القريبة يجمعون الطلبة، ويرغبونهم فلم تمض إلاّ أيام قلائل حتى قدموا بنحو الأربعمائة طالب.... فبعث لهم بالأسلحة وكل ما يحتاجون إليه ولم يزل مددهم يتواصل حتى أربى عددهم عن الحد...." [26].

وما يستنتج ممّا سبق أنّ اهتمام بايات البايلك الغربي، وبالخصوص الباي محمد الكبير بهذه الرباطات قد كان كبيرا، حيث حشد إليها العلماء والفقهاء وطلبة العلم ووفّر لهم كل ما يلزم ليقوموا بالجهاد ضد النصارى الإسبان المحتلين بوهران والمرسى الكبير، كون أنّ هذه الفئة من المجتمع هي التي أبدت استعدادات أكثر للتضحية والجهاد، لما كان لها من قدرة على إقناع الناس على حمل السلاح والتطوع بعد أن أعطت هي المثل الأول.

([22]): لقد استنتج الباحث ذلك من خلال ما ذكره له أحد أحفاد مصطفى الرماصي القلعي، عن قصة مفيدة عن مشاركة العلماء في جهاد الإسبان. لقاء مع الشيخ عبد الله المصطفاوي: مدرس وإمام بزاوية قرآنية بالرماصية. بتاريخ: 2008/01/11م.

([23]): يحيى بوعزيز، دور العلماء و الرباطات....، "المرجع السابق"، ص: 109.

([24]): المهدي البوعبدلي، "المرجع السابق"، ص: 28.

([25]): ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق"، ص: 235.

([26]): "المصدر نفسه" ، ص: 235.

فكان الباي محمد الكبير أكبر البايات تجنيدا للعلماء والفقهاء وطلبة العلم، حتّى وصلوا إلى حوالي الألفين وخمسمائة عالما[27] في رباط إيفري[28] ورباط المائدة[29] والبريدية وسيدي معروف.[30]

2.2 تنظيم علماء معسكر لرباط وهران:

لقد عمل علماء معسكر على تلبية نداء الباي محمد الكبير وتطبيق كل أوامره،[31] ولتفعيل دور الاستجابة لنداء الرباط في أوساط الطلبة اجتهد علماء معسكر على تطبيق جملة من التدابير التنظيمية والتحفيزية أعلن عنها الباي محمد الكبير، حيث حصرها علماء هاته الحاضرة– ابن زرفة وابن سحنون– فيما يلي:

- ضرورة جمع العلماء وطلبة العلم بين الدروس العلمية والجهاد بالرباط، وفي هذا المقام يقول **ابن سحنون الراشدي:** ".... وهم مشتغلون بقراءة القرآن والفقه والنحو لا يتركون إلا في أوقات القتال وبالليل يبيتون يتلون القرآن العزيز لا يفترون عنه إلا نحو الساعتين من أوقات النوم، ومتى انتبه النائم وجدهم على حالتهم تلك وسمع التلاوة من كل ناحية في ذلك الوادي فكانوا.... رهبان بالليل أسود بالنهار...."[32].
- إبقاء أجرة معلم الصبيان مع تخصيص أجرة إضافية إن التحق بالرباط.
- تخصيص خمسين ريالا لكل مدرس ومقرء وسلاك للقرآن التحق بالرباط وإن تكاثر العدد.[33]

([27]): يحيى بوعزيز: موضوعات وقضايا... "المرجع السابق"، ص: 123.

([28]): رباط إيفري: أو وادي إيفري الذي يقع على طريقين: طريق نحو المرسى الكبير وطريق نحو وهران، قصده المرابطون منذ الاحتلال الإسباني الأول في بداية القرن السادس عشر الميلادي (16م)، ذكر ابن زرفة الدحاوي حديثا عنه مفاده أنه يتوفر على منافع كثيرة استقطبت عائلات عربية اختارت الاستقرار به، كما اختاره المرابطون للرباط و مكانه اليوم حي رأس العين غرب المدينة على الضفة الغربية للوادي. يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا....ج1، "المرجع السابق"، ص: 121.

([29]): رباط المائدة: أو رباط جبل المائدة الواقع على قمة الجبل المطل على وهران غربا، وُجد هذا الرباط بعد الاحتلال الإسباني. وبالتحديد فهو يقع بين المرسى الكبير ووهران، ترك فيه الباي محمد الكبير مجموعة من المرابطين والمجاهدين بعد فشل الحصار الأول لتراقب تحركات الجيش الإسباني. كما ذكر ابن سحنون الراشدي أنه قد أُسس بين سيدي معروف والبريدية وتانسالت على يد محمد الكبير، وهو في الأصل عبارة عن مجموعة من المغاور تركز بها بعض المجاهدين لمقاومة النصارى الإسبان. يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا....ج1 "المرجع السابق"، ص، ص: 113، 114.

([30]): البريدية وسيدي معروف: من بين الرباطات المستحدثة بعد الاحتلال الإسباني، رابط بها العلماء والطلبة للدفاع عن وهران و الاستعلام عن الأخطار التي لربما تتعرض لها المدينة جراء الاحتلال الإسباني. ضف إلى ذلك رباط وادي مسرقين وتانسالت. أنظر: يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا....ج1، "المرجع السابق"، ص: 121. –يحيى بوعزيز، (1979)، ماضي مدينة وهران وأمجادها التاريخية، الثقافة، العدد: 52.

([31]): يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا.... ج1، "المرجع السابق"، ص: 132.

([32]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص: 241.

([33]): بلبراوات بن عتو، "المرجع السابق"، ص: 139.

- منع التدريس في البدو والمدن إلا في الرباط الذي أصبح يؤدي دورين: الجهاد والتعليم،[34] وفي هذا الصدد يقول **ابن سحنون الراشدي:** "... فظهر له أن يوجّه له الطلبة يحمونه منهم ويحُوطونه عنهم، فدعاهم إلى ذلك ورغبهم في وافر العطاء ومنع الناس من التدريس في المدن، وأن لا يكون التدريس إلا في ذلك الجبل"[35]

وممّا لاشك فيه أنّ هذه الإجراءات هي التي مكّنت علماء وطلبة المدرسة المحمدية من جمع أعداد غفيرة من الطلبة سواءا من المدن أو من البوادي، ومن استنفار الفقهاء والعلماء جاؤوا بهم إلى الرباط، حيث زوّدهم الباي محمد الكبير بكلّ ما يحتاجون إليه من المؤن والذخائر والجلود التي استعملوها كأحذية لهم في مرابطة الجبل ضد الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير.[36]

وزيادة على هذا، فمن الملاحظ أنّ رغبة الباي محمد الكبير قد اشتدت في جمع طلبة وعلماء معسكر لإشراكهم في الفتح، لا سيما عندما عَلم بدورهم في الفتح الأول سنة 1708م والمجهودات التي قام بها كل من الشيخ مصطفى الرماصي القلعي وعبد القادر المشرفي والشيخ والأديب محمد بن أقوجيل،[37] وغيرهم من علماء الوطن الغريسي الراشدي. حيث اختار هذا الباي أبرز أعضاء ديوانه من علماء معسكر لقيادة الفتح والإشراف على الطلبة المرابطين بجبل المائدة ووادي إيفري وهم على التوالي:

- **الفقيه محمد بن عبد الله الجيلالي:** هو محمد بن عبد الله بن موفق بوجلال أحد أحفاد الولي الصالح سيدي محمد بوجلال الذي يتوسط ضريحه مدينة معسكر، يرجع نسبه إلى السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم.[38] ولد في معسكر وكان من أبرز شيوخها حيث برع في العلوم الشرعية والأدب، كما أخذ عن علماء فاس وعلماء الحجاز عند أدائه لفريضة الحج، ثم عاد إلى بلده معسكر ودرّس بها فاكتسب قدرا وجاها كبيرا.

([34]): يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا...، "المرجع السابق"، ص: 123.

([35]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص: 233.

([36]): يحيى بوعزيز، دور العلماء و الرباطات....، " المرجع السابق" ، ص: 110. وللإشارة فلقد كان بوهران رباطات عديدة ومتعددة، وذلك راجع لطبيعتها الجبلية والبحرية وانزوائها على البحر. ونذكر منها رباطين أساسيين هما رباط صلب الفتح ورباط جبل المائدة الذي أُسس بين سيدي معروف والبريدية وتانسالمت على يد الباي محمد الكبير، وهو في الأصل عبارة عن مجموعة من المغاور تركّز بها بعض المجاهدين لمقاومة النصارى الإسبان وملاحقتهم ومضايقتهم. للمزيد ينظر: يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا... ، "المرجع السابق"، ص–ص: 121–122.

([37]): الشيخ محمد بن أقوجيل: الكاتب و الشاعر الذي ينحدر من أسرة علمية عريقة بنواحي مدينة البرج شرق معسكر، توارثت خطة القضاء خلال عهد الأتراك و الفرنسيين. و قد ألف ابن أقوجيل كتابا سماه: "عقد الجمان اللامع من قعر البحر الجامع". كما نظم شعرا حث به الباشا حسين خوجة الشريف (1705– 1707م) على محاربة الإسبان بوهران وعلى الاعتناء بالعلماء ومشاورتهم في الأمور و القضايا و بالخصوص الجهاد. أنظر: يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا....، "المرجع السابق" ص، ص: 139، 140.

([38]): جاكر لحسن،(2003)، نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931–1956، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع. ص: 52.

ولحسن تدريسه وسعة علمه وتربيته ومكانته العلمية في الفقه والحديث والتوحيد والمنطق والأصول والبلاغة والنحو، عيّنه باي معسكر محمد الكبير رئيسا لمجلس الشورى ببلاطه ومديرا على المدرسة المحمدية التي كانت تضاهي المدارس الإسلامية الكبيرة من حيث نوعية الدروس المقدمة.[39] ولمّا عزم الباي محمد الكبير على طرد الإسبان من وهران فكّر في إحياء الرباط بجبل المائدة فوقع اختياره على مدير المدرسة محمد بن عبد الله الجيلالي رئيسا وأميرا على الطلبة المرابطين في أواخر ربيع الأول 1205هـ ما يوافق بداية شهر ديسمبر 1790م.[40] وعيّن له مساعدين ومنع الناس من التدريس في المدن وأن لا يكون التدريس إلا في ذلك الجبل.[41]

وللعلم أن الباي محمد الكبير لم يتقاعس عن تموين المرابطين بالغذاء من لحم وعسل وقمح وسمن وزيت وفواكه وغيرها، وأيضا بالسلاح من بارود ورصاص وقنابل وبنادق.[42] وفي هذا الشأن طلب الباي من أمير الرباط محمد بن عبد الله الجيلالي أن يُدوّن اسم ونسب كلّ طالب مُرابط يستلم السلاح، وأن يَدفع للمرابطين الدراهم لطحن القمح وشراء الصابون والنّعال.[43] كما أمره بأن يُوفّر لهم كلّ ما يحتاجونه من الخيم والأواني والدواء والمراجل للوضوء والغسيل، حيث وضع رئيس الرباط بأمر من الباي محمد الكبير تحت تصرّفهم الأطباء وذوي الاختصاص الحربي، كما أمرهم رئيس الرباط بتخصيص فرسين أصيلين وبريدين لموافاته بالأخبار التي ترد من الباي محمد الكبير.[44]

وزيادة على هذا، فلقد أمر الباي محمد الكبير في رسالة كتبها لرئيس الرباط محمد بن عبد الله الجيلالي من أن يُسرّح الطلبة إلى ذويهم مع وجوب التردد على الرباط المرة بعد الأخرى، [45] كما يحثّه فيها على ضرورة تذويب الخلافات التي كانت تقع بين المرابطين وشيوخهم وقوادهم أثناء توزيع العطايا بإرداف عطايا إضافية أو إعادة توزيعها بالعدل،[46] ضف إلى ذلك ضرورة تحسين النيّات والتذكير بفضل الرباط والجهاد في سبيل الله. [47] ولعلّ هذا كلّه راجع إلى سعي الباي محمد الكبير إلى توطيد ثقة المرابطين وطلبة العلم والقرآن، وفي من

([39]): "المرجع نفسه"، ص: 52.

([40]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص: 233.

([41]): "المصدر نفسه"، ص: 233.

([42]): المهدي البوعبدلي، الرباط والفداء...."المرجع السابق"، ص:30.

([43]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص:235.

([44]): "المصدر نفسه"، ص: 235.

([45]): "المصدر نفسه"، ص:235.

([46]): يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا....."المرجع السابق"، ص:123.

([47]): المهدي البوعبدلي، الرباط والفداء...، "المرجع السابق"، ص:28.

يقوم بأمرهم في الرباط –محمد بن عبد الله الجيلالي– حتى لا يتسلّل إليهم الإحباط فيستغلّه الاحتلال الإسباني بوهران والمرسى الكبير.

وبالإضافة إلى المناصب الهامة التي تولاّها الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي، هناك مظهر آخر يعكس تفوّقه العلمي وحسن تدبيره للأمور وهو إشرافه على علماء كبار في جبل المائدة قرب وهران من أمثال الطاهر بن حوا قاضي معسكر، وابن زرفة الدحاوي وابن سحنون الراشدي الذين شاركوا في تضييق الخناق على الإسبان،[48] حيث تتّضح علاقة الأساتذة المتينة في رباط وهران بتلامذتهم والمبنية على الاحترام المتبادل،[49] في كون أنّ علماء معسكر كانوا يتفانون في خدمة تلامذتهم فيسدّون إليهم بنصائحهم وتوجّهاتهم بهدف خدمة العلم والثقافة والجهاد في سبيل الله، إذ لا تكاد مؤلفات تلك الفترة تخلوا من ذكرٍ لخصائلهم ومكانتهم العلمية والأدبية بين تلاميذهم.[50] فمثلا ها هو ابن سحنون الراشدي يعطينا صورة واضحة عن ذلك، من خلال المكانة التي كان كان يحظى بها أستاذه العالم محمد بن عبد الله الجيلالي مدير المدرسة المحمدية ورئيس رباط وهران بقوله: "...هو شيخنا الشجاع المعظم المفضل كاشف الغوامض بذهنه...النقادة النحرير الشاهدة له دروسه بالتحقيق والتحرير، ذو الفضائل الوافرة والمحاسن التي لم تزل في الناس على كثرتها ابن محمد ..... المشهور بأبي جلال.....نشأ رضي الله عنه بين علم وأدب يقتبسه وأدب يلتمسه.....وهو الآن كهف إليه الملاذ وجبل به المعاذ .....إلا وأنه من أكبر شيوخنا الذين انتجعنا رياض دروسهم وانتفعنا كل النفع..." [51]

وفي سياق إشراف الشيخ محمد الجيلالي على تدريس عدد من الطلبة في رباط وهران، عمل على إجازة بعض من علماء معسكر، فكان ابن سحنون الراشدي صاحب الثغر الجماني[52] من بين الذين استجازهم الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي، بعد أن لازمه عدّة ليال وأيام. حيث أجازه وكتب له بذلك في 26 ربيع الثاني سنة 1203هـ/1788م[53] بعد أن ذكر الشيخ المُجيِز استدعاء ابن سحنون له قال :"فحينئذ قلت قد أجزت ولدنا فيما

([48]): جاكر لحسن، "المرجع السابق"، ص: 53.

([49]): ذلك أنه كانت نظرة الطلبة المرابطين بجبل المائدة وإيفري لأساتذتهم والمشرفين عليهم نظرة احترام وتقديس، حيث كان علماء معسكر يحظون بمنزلة عظيمة لدى المرابطين. فكان تأثيرهم في الطبقة العامة تأثيرا كبيرا لإلهاب حماس الناس وضرورة الالتحاق بالرباط للجهاد في سبيل الله. أبو القاسم سعد الله، "المرجع السابق"، ص:196.

([50]): صالح فركوس، "المرجع السابق"، ص:27.

([51]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص،ص:228،229.

([52]): لقد درس ابن سحنون الراشدي في الرباط أثناء محاصرة الباي محمد الكبير لوهران سنة 1289هـ/1789م، بعدما تلقى تعليما خاصا من أستاذه ورئيس الرباط محمد بن عبد الله الجيلالي. ناصر الدين سعيدوني، (1999)، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، بيروت، دار الغرب الإسلامي. ص،ص:439،441.

([53]): لزغم فوزية، (2005)، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 924-1245هـ/1518-1830م، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم العوم الانسانية، كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية، جامعة وهران، الجزائر، ص: 77.

قرأ عليّ وفيما تحصّل لي، وانتهى إليّ من أصول وفروع ومروي ومسموع أو مؤلّف وموضوع، ولبّيت دعوته وقبلت طلبته وقلت: قد أجزت الفقيه المذكور في جميع ذلك ما حضر قراءته عليّ، وما لم يحضره إجازة تامة مطلقة عامة".[54]

ثمّ استعرض الكتب التي قرأها عليه ليستحقّ إجازته وقوله: "وقد كان قرأ عليّ أكثر صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري درسا، وسمع باقيه بحضرتنا وأكثر القرآن العظيم درسا، وقرأ علينا أوائل "كبرى الشيخ السنوسي" ومعظم "جمع الجوامع" بل معظم شرحه لجلال الدين المحلى، وكل "جوهرة" الأخضري و"سلمه"[55] وباحثنا في أكثر "السعديين" وحواشيهما حال قراءة الجوهرة، كما قرأ علينا جميع "ألفية إبن مالك" مباحثا أكثر شروحها، كما قرأ علينا جميع "رسالة الوضع" ونخبة بن حجر[56] قراءة تحقيق في الجميع، وغير ذلك مما أجزناه فيه إجازة تامة شاملة عامة".[57]

وعلى ما يبدوا أنّ الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي لم تقتصر إجازته لعلماء معسكر أثناء الرباط بوهران فقط، بل تجاوزت ذلك لتشمل مجموعة من التلامذة أجازهم الشيخ محمد الجيلالي بعد فتح وهران سنة 1792م.[58] ولعلّ من بينهم الشيخ عبد القادر بن عبد الله الراشدي المعسكري الذي كتب له الإجازة في جمادى الأخيرة سنة 1215هـ/1800م، وهي الإجازة التي عدّد فيها المشايخ الذين أجازوه من أهل فاس وتونس ومصر والمدينة

([54]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص، ص: 231،229.

([55]): عبد الرحمن الأخضري: ولد في بنطيوس من قرى بسكرة، وذهب معظم من ترجموا له إلى أنه عاش ثلاث وثلاثين سنة فقط (920-953هـ). ولكن نضجه العلمي لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان قد تقدم في السن؛ قضى حياته في التعليم والتأليف في زاوية عائلته في بنطيوس، وقد أثر بعلمه أكثر مما أثر بتصوفه من تآليفه: "الدرة البيضاء في الحساب والفرائض"؛ والجوهر المكنون في الثلاثة فنون: "المعاني والبيان والبديع" و "السلم المرونق في علم المنطق" و "المنظومة القدسية في طريق السنة". أبو القاسم سعد الله، "المرجع السابق، ص، ص: 502،500.- للمزيد أنظر: شخوم سعدي، (2005)، مظاهر النشاط الثقافي في كتابات عبد الرحمن الأخضري، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد: 12، ص، ص: 249،241.

([56]): الحافظ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني المصري المعروف بابن حجر (773-852هـ). أنظر: جلال الدين السيوطي، (1997)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج1، وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية –منشورات علي بيضون. ص: 310.

([57]): ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق"، ص، ص: 231،229.

([58]): إن إجازتي الشيخ محمد الجيلالي لكل من ابن سحنون وعبد القادر الراشدي إجازات تعليمية، كتبها لهما بعد أن قرئا عليه "قراءة تحقيق" اختبر خلالها مستوى كل منهما. أنظر، لزغم فوزية، "المرجع السابق"، ص:78.

المنورة، ثم أجازه بعدما بين ما الذي أخذه عليه بقوله: "بعد أن جالسنا في ألفية ابن مالك مجالس عديدة وسلك معنا في المسائل الكثيرة أحسن المسالك، وظهرت نجابته فيما هنالك فأجزته في الفقه والنحو والكلام".[59]

وفي الواقع أنّ الفقيه محمد بن عبد الله الجيلالي كان يتطلّع دوما إلى ما هو أفضل من مستواه ويحاول تطويره بدليل اللقاءات والمناقشات التي كان يجريها مع العلماء في مختلف بلدان الوطن العربي، نذكر من ذلك مثلا رحلته إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى واتصاله بعلمائها الأكابر،[60] كون أنّ المغرب الأقصى كان مقرّا للزوايا والمرابطين خلال العهد المدروس.[61]

ومهما كان الأمر فإنّ الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي[62] والكثير من علماء معسكر قد جمعوا بين العمل الثقافي التعليمي والعمل العسكري برباط وهران، حتى يكونوا قدوة لتلامذتهم الذين التحق الكثير منهم برباط جبل المائدة، فكان العالم الطاهر بن حوا نائبا لرئيس الرباط وعلى رأس العلماء وطلبة العلم المحررين لوهران و المرسى الكبير من أيدي الاحتلال الإسباني سنة 1792م.[63]

- **الطاهر بن حوا:** هو محمد بن الطاهر بن عبد القادر بن محمد المعروف بإبن حوا من كبار علماء غريس، شغل منصب قاضي القضاة بمدينة معسكر، حيث عينه الباي محمد بن عثمان الكبير نائبا لرئيس رباط وهران محمد بن عبد الله الجيلالي،[64] لكنّه استشهد قبل فتح وهران وتحديدا في: 02 جمادى الأولى 1205هـ ما يوافق بداية يناير 1791م إثر إصابته برصاصة، جرّاء اشتباك وقع بين فريق من الطلبة والإسبان في 27 ربيع الثاني

([59]): ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، (1984)، الجزائر في التاريخ: العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب. ص، ص: 150،150.

([60]): جاكر لحسن، "المرجع السابق"، ص: 52.

([61]): ذلك أن موقف الفقيه محمد بن عبد الله الجيلالي اتجاه الطرق الصوفية جاء منافيا وضدا لها، حيث اعتبرها منافية للسلفية. إذ يتضح ذلك في الرسالة التي بعثها إلى زميله في الدراسة بفاس أحمد التيجاني مؤسس الطريقة التيجانية، يحذره وينصحه فيها ضد الخروج عن السلفية، وذلك عندما سمع به يزعم أنه قدم فتح له بطريقته التيجانية ما لم يفتح لأحد قبله من عهد الصحابة. راجع، جاكر لحسن، "المرجع السابق"، ص: 54.

([62]): وفي إشارة أشار إليها أبو القاسم سعد الله أن الباي محمد الكبير كان يريد التخلص من الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي عند تعيينه له رئيسا للرباط، كما تخلص من الطاهر بن حوا الذي استشهد أثناء عملية تحرير وهران الثانية. لكن السؤال الذي يبقى مطروحا: كيف أن الباي محمد الكبير يريد التخلص منهما، وهو في أمس الحاجة إلى مجموعة من الطلبة والعلماء تقوده إلى فتح وهران و المرسى الكبير وافتكاكهما من أيدي الإسبان. أنظر: أبو القاسم سعد الله، "المرجع السابق"، ص: 208.

([63]): وعلى الرغم من الدور الكبير الذي لعبه محمد بن عبد الله الجيلالي في الحياة السياسية و الثقافية و المناصب العليا التي تقلدها في بلاط الباي محمد الكبير، إلا أن المعلومات المتعلقة بإنتاجه الفكري وتاريخ وفاته منعدمة لحد الآن.

([64]): كما تولى مهمة التدريس بالمدرسة المحمدية على عهد الباي محمد الكبير، ومن آثاره الأدبية المعروفة كتاب: "نظم الجواهر في سلك أهل البصائر"، و"فتح البين في التوصل برب العالمين" و "زهر الأداب في جمع شعر أفاضل الكتاب".

1205هـ ما يوافق نهاية ديسمبر 1790م،[65] وفي هذا المقام يقول **ابن سحنون الراشدي:** "...فأخبر به العلامة المفضال أسد الحروب... قاضي المعسكر السيد الطاهر فرجع- رحمه الله- إليه، فلما توجّه نحو العدو وسدّد مكحلته ليرمي بها أصيب في ذراعه الأيمن قرب الأكحل ببندقية خرجت من منتهى عضده، ثم دخلت جوفه فولّى- رحمه الله- فكانت إصابته على الطلبة من البلاء العظيم... وذهب الطلبة بالسيد الطاهر مرتثا، فمات بعد ذلك بليلتين عقب صلاة العشاء أولّ ليلة من جمادى الأولى..."[66].

وعلى ما يبدوا أنّ وفاة نائب رئيس رباط وهران- الطاهر بن حوا- قد كانت نكسة للطلبة المرابطين حيث رثاه ابن سحنون الراشدي بأبيات شعرية مطلعها:

عَزّ نَفْسَك عنْ صَرُوف الزَمَان كُلّ شَيء علَى البَسِيطَة فَان
كُلُ مَنْ عَاشَ لَمْ يَزلْ كلَ يَوم يَشتَكي مِن إصَابَة الحَدثَان
إنَّمَا قدْ فَقدنَا مَنْ ليسَ للقَلْب علَى الصَبر عنْ نَواهْ يَدَان[67]
يا ابْن حَواءْ إنّ جَفنِي قَريح ض نَقيمُها منَ الأدرَان
يا ابنَ حَواء إنَّ قَلبي حَريقْ عَنكَ مُفتتِن وأيُ افتتَان[68]

كما عيّن الباي محمد الكبير من معسكر أمناءا وقواد لرباط وهران، المقتصرة مهمتهم في الاتصال بالأقطار والدول لجمع السلاح وتوزيع العطاء على المرابطين. فكان العالم والمؤرخ ابن سحنون الراشدي و الشيخ أحمد ابن هطال التلمساني من الأمناء البارزين الذين اعتمد عليهم الباي في تسيير الفتح.[69] ضف إلى ذلك تعيينه للقواد على المجموعات المرابطة المصنّفة على أساس المناطق التي ينتسبون إليها، أو على أساس التخصص العسكري. حيث عيّن الباي محمد الكبير أحد شيوخ المدرسة المحمدية كقائدا على طلبة معسكر،[70] ولعلّ هذا

([65]): بلبروات بن عتو، "المرجع السابق"، ص: 140.

([66]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص: 237.

([67]): "المصدر نفسه"، ص، ص: 237، 239.

([68]): و للإشارة أنه كان بين ابن سحنون الراشدي و الطاهر بن حوا مودة وتعاونا علميا، حيث أهدى ابن سحنون للطاهر بن حوا تأليفه المسمى: "عقود المحاسن" ونال منه في المقابل بعض الأشعار. وللعلم أن الشيخ الهناني بن محمد بن علي الشريف المازوني هو من كان خليفة للطاهر بن حوا ونائبا لمحمد بن عبد الله الجيلالي. راجع ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص، ص: 233، 234.

([69]): إذ كلّف الباي محمد الكبير كاتبه ابن هطال التلمساني وقاضي المحلة إلى المغرب الأقصى وجبل طارق لشراء الذخائر والأسلحة والبارود، فأرسل معهما هدية إلى سلطان المغرب. يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا....، ج1، "المرجع السابق"، ص: 123.

([70]): لا تذكر المصادر بالتحديد من هو ذلك العالم أو الشيخ الذي إمتهن مهمة قيادة طلبة الرباط المتوافدين من معسكر، مع العلم أن الشيخ محمد بن أبي سيف كان قائدا على طلبة الغرابة وقدور المحلي قائدا للمكاحلية، والشيخ محمد بن أبي طالب قائدا على طلبة مازونة. لقاء مع الجيلالي جلول باحث في التراث التاريخي لمدينة معسكر، في رواية شفوية حدثنا بها يوم: 03 مارس 2008م.

التعيين يعود إلى المهابة التّي كان يتمتّع بها هؤلاء الشيوخ في قلوب الناس لارتباطهم بالزوايا والمدارس، التي اشتهر مؤسّسوها الأوائل بالتقوى والكرامة من جهة، ولممارستها لعدة وظائف أبرزها العبادة والتعليم وإيواء الطلبة الفقراء والغرباء المسافرين من جهة أخرى.[71]

ولكي يُجنّد الباي محمد الكبير المزيد من المثقّفين وطلبة العلم، أمر كلّ من ابن سحنون الراشدي وابن هطال التلمساني– أمناء الرباط– بتوفير كلّ ما يلزم للعلماء وطلبة العلم و القرآن المرابطين بجبل المائدة. إذ عمل أمناء الرباط على جلب الحطّابين والطبّاخين ونقل المؤونة الغذائية والذخيرة الحربية على أظهر الدواب إلى الرباط، وتوزيع ذلك شهريا على المرابطين، كون ذلك يُعين أمير المرابطين محمد بن عبد الله الجيلالي في أداء مهامه ويبعد عنه التهم.[72] وفي هذا المقام يقول **ابن سحنون الراشدي:** "... كلّ هذا وهو يوجّه لجميعهم بالأطعمة والسمن والزيت والفواكه ونحوها، وبالشاء والبقر للذبح وبما استحدث من السلاح والبارود وبالدراهم للصابون وشراء المناطق والنعال، ويبعث مع ذلك في كل شهر من يقسّمه عليهم من أمنائه حتى ترتفع التّهم منهم عن أميره عليهم وتحصل له الإعانة...".[73]

كما قسّم أمناء الرباط بأمرٍ من الباي محمد الكبير الطلبة المرابطين إلى مجموعات كثيرة أطلق عليها اسم "ديوان"، حيث ضمّ كلّ ديوان خمسة وعشرين طالبا وفّر لها ابن سحنون الراشدي وابن هطال التلمساني ما يكفيها من الطعام و الدراهم.[74] وفي هذا الصدد يقول **ابن سحنون الراشدي:** "... وقد كان مطبخهم واحدا تأخذ كل جماعة منه ما يكفيها، فلّما كثروا وعجز الطباخون عن القيام بجميعهم ظهر له أن يدوّنهم خمسة وعشرون خمسة وعشرون في الديوان، ويدفع لكل ديوان ما يكفيهم من الطعام والدراهم لشراء المصالح... كل هذا وهم يتزايدون حتى أنّهم قسّموا الرّزق أولّ رجب على نحو الستين ديوانا ثم قسمناه بينهم أول شعبان على نحو التسعين ديوانا قسّم بينهم في آخره على ما ينيف على المائة".[75]

وعلى ما يبدوا أنّ ابن سحنون الراشدي، قد أشار في كتابه الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني على أن طلبة العلم وحملة القرآن قد اختلطوا بالطبجية – رماة المدافع– وحفرة الألغام برباط وهران بغية تدريبهم على

([71]): العيد مسعود،(1988)، المرابطون و الطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، العدد: 10، 1988، ص: 07.

([72]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص: 235.

([73]): "المصدر نفسه"، ص: 235.

([74]): يحيى بوعزيز، دور العلماء و الرباطات.... "المرجع السابق"، ص: ص: 109، 110.

([75]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص: 235.

القتال،[76] حيث عيّن الباي محمد الكبير من كلّ ديوان جماعة من الطلبة وألحقهم بالطبجية للتعلم تحت إشراف أحد المهرة. كما كلّف السبّاحين المهرة بتدريب الطلبة المرابطين على السّباحة يوميا في شواطئ بايليكه،[77] حيث اشترى لهم نحو ألف سيف وفرّقها عليهم مع بعض المكاحل (البنادق)، وفي هذا المقام يقول **إبن سحنون الراشدي:** "... وقد كان اشترى لهم نحو الألف السيف فأمر فجعلت لها الأغماد والحمائل ثم بعثها لهم ففرّقناها عليهم مع بعض المكاحل التي كان يوجّهها إليهم مرّة مرّة فتسابقوا إليها وتزاحموا عليها....".[78]

ولعلّ ما يستنتج ممّا سبق، هو تلك الطرائف التي ذكرها ابن سحنون الراشدي الدالة على أنّ علماء الرباط كانوا يستهينون بقذائف العدو، فعندما يلتقطونها يتولّون عليها حتى يطفئوها كي يستخرجوا منها مادة البارود،[79] الأمر الذي يبيّن لنا مدى تدرّب علماء الرباط على الفنون القتالية والعسكرية.

وزيادة على هذا، فلقد أمر الباي محمد الكبير من أمناء الرباط– ابن سحنون وابن هطال– على توصية الطلبة بقراءة القرآن ودراسته والتذكير بفضل الرباط والجهاد في سبيل الله.[80] الأمر الذي يعكس لنا الدور الكبير الذي لعبه كلّ من ابن سحنون الراشدي وابن هطال التلمساني في إلهاب حماس الناس للجهاد في فتح وهران، وبالتالي نلاحظ أنّ أمراء وأمناء الرباط قد عملوا على ضبط التوازنات النفسية للمرابطين، لأنّها أساس الفعالية القتالية. حيث كان كلّ واحد من علماء معسكر يسعى جاهدا إلى توطيد الثقة في طلبة الرباط وفي من يقوم بأمرهم بجبل المائدة – محمد بن عبد الله الجيلالي–، حتّى لا يتسلّل إليهم الإحباط فأصبح بذلك مجموع أفراد الرباط ما يزيد عن الألفين وخمسمائة طالب علم،[81] كانوا في المقدمة خلال الهجومات التي شُنّت على الإسبان في وهران وأحوازها إلى أن تمّ تحريرها نهائيا سنة 1792م على عهد الباي محمد الكبير، وليتفرّغ نهائيا إلى مشروعه النهضوي الهادف إلى بعث الحركة الثقافية والعلمية بالبايلك الغربي فلقيت حاضرة معسكر نصيبها من هذا العطاء العلمي والفكري وأصبحت قبلة للعلماء وإحدى قلاع العلم والمعرفة بالبايلك الغربي.

([76]): رماة المدافع وحفرة الألغام: حيث أن رماة المدافع قدموا من مناطق داخل البايلك الغربي، أما حفرة الألغام فهم أهل فجيج بالجنوب على الحدود الجزائرية المغربية اختصوا بحفر الألغام تحت الأرض، فقدم إلى الباي محمد الكبير ما ينيف عن المائة حفار دفع لهم هذا الباي الكتان الجيد ومائتين وألف ريال. ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص: 248.

([77]): "المصدر نفسه"، ص: 248.

([78]): "المصدر نفسه"، ص، ص: 235، 236.

([79]): يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا...ج1، "المرجع السابق"، ص: 123.

([80]): ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص: 235.

([81]): يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا... ج1، "المرجع السابق"، ص: 123.

3. خاتمة:

وهكذا عبر الصفحات الماضية تجلّى لنا في عدّة جوانب أثر علماء وطلبة معسكر في الجهاد الحربي ضدّ الإسبان، فرأينا اهتمامهم الكبير بشؤون الجهاد وقضاياه وأخباره وما يرتبط بذلك من عدّة وعتاد. كما ظهرت جهودهم في دعم حركة الجهاد الميداني بالأموال سواء بإنفاق ما يستطيعون منها في ذلك السبيل أو بحثّ غيرهم على الإنفاق أو بمؤازرة السلطة القائمة على حركة الجهاد في مطالبتها الناس بالمعونة عند الحاجة إلى ذلك، على أنّ أثرهم استبان لنا بشكل لامع في قيادة الرباطات وفي ساحات القتال فرأيناهم يتقدمون الصفوف ويحملون السلاح ويخالطون به العدو. كما أنّهم كانوا لا ينفكون عن تحريض أفراد الجيش النظامي على التضحية في سبيل الله، ومقاومة الأعداء إلى غاية تحرير مدينة وهران سنة 1792م.

كما تعرّفنا على ما بذله العلماء من مجهودات وما أنفقوه من أوقات في سبيل تحشيد طاقات جماعة المسلمين في وهران لجهاد الإسبان، والتصدي لزحفهم المتنامي وانتهاكاتهم الوحشية وغاراتهم المسعورة على أراضي إيالة الجزائر. وصفوة القول أنّ أثر العلماء السياسي في مواجهة الإسبان أواخر العهد العثماني توزّع بين استنفار الأمة وطاقاتها للجهاد، وحرص مفرط على وحدة الإيالة واستصراخ للحكام في السنوات التي حدث فيها تقاعس للمرابطين على مقاومة وحصار الإسبان بوهران.

4. قائمة المراجع:

- بوعزيز يحي،(1995)، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- بوعزيز يحي،(2004)، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
- بوعزيز يحي، (1988)، دور العلماء و الرباطات في تحرير مدينة وهران من أيدي الإسبان، مجلة دراسات مغاربية، العدد: 01، ص-ص: 107-120.
- بوعزيز يحي، (1979)، ماضي مدينة وهران وأمجادها التاريخية، الثقافة، العدد: 52. ص-ص: 23-30.
- البوعبدلي المهدي، (1973)، الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى، الأصالة، العدد: 13، ص-ص: 29-38.
- بن عتو بلبروات، (2001)، الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري (1779م-1797م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم العلوم الانسانية، كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية، جامعة وهران، الجزائر.
- الدحاوي ابن زرفة، (2003)، الرحلة القمرية في ذكر السيرة المحمدية: تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي، تحقيق: مختار حساني، الجزائر، مخبر المخطوطات.

– لحسن جاكر،(2003)، نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931–1956، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع.

– مسعود العيد،(1988)، المرابطون و الطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، العدد: 10، 1988، ص–ص: 07–15.

– سعدي شخوم، (2005)، مظاهر النشاط الثقافي في كتابات عبد الرحمن الأخضري، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد: 12، ص– ص: 241–249.

– سعد الله أبو القاسم، (1981)، تاريخ الجزائر الثقافي: من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16–20م)، ج1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

– سعيدوني ناصر الدين، (1999)، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

– سعيدوني ناصر الدين، البوعبدلي المهدي، (1984)، الجزائر في التاريخ: العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

– السيوطي جلال الدين، (1997)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج1، وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية –منشورات علي بيضون.

– فركوس صالح، (1982)، الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري، الثقافة، العدد: 71، ص– ص: 08–21.

– فوزية لزغم، (2005)، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 924–1245هـ/1518–1830م، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم العوم الانسانية، كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية، جامعة وهران، الجزائر.

– الراشدي ابن سحنون، (1973)، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، الجزائر، مطبعة البعث.